موت فيكونت سلفانيا

- مارسيل بروست -

"كان ابوللون يحرس قطعان ادمينوس، هكذا يقول الشعراء. والإنسان إله مقنع، هو أيضا، يقلد المجنون".

– لا تبك هكذا يا سيد الكسي. أن حضرة فيكونت سلفانيا قد يهبك حصانا.

– حصانا كبيرا ؟

– قد يكون كبيرا كحصان السيد جاردينبو. ولكن لا تبك إذن هكذا... في يوم ميلادك الثالث عشر !

والتمعت عينا الكسي، خلال الدموع، لهذه الأمنية السعيدة أصبح رجلا في الثالثة عشرة من عمره، وسيكون له حصان !

ولكن العزاء لم يجد سبيلا إلى قلبه، فقد كان عليه أن يذهب هذا اليوم لزيارة عمه بلداسار سيلفند، فيكونت سلفانيا. صحيح أن الكسي كإن قد شاهد عمه مرات كثيرة، مذ علم بان علته لا يمكن شفاؤها. ولكن كل شيء تغير بعدها. لقد عرف بلداسار حقيقة مرضه وبات يعلم أن حياته على الأرض لن تطول سوى ثلاث سنين على الأكثر..

وكان الكسي يحار في سره، كيف أن هذا التأكيد لم يورث عمه

الجنون أو يقتله غما وحزنا، وكان يخيل إليه بأنه لن يتحمل ألم رؤيته، ويعتقد أن لابد لعمه أن يحدثه عن نهايته القريبة، فلا يجد في نفسه القوة على حبس عبراته، بله التسرية عنه وإدخال العزاء إلى قلبه.

كان يحب عمه حبا يقارب العبادة وجد فيه أجمل شباب العائلة، أشدهم فتوة وحياة وظرفا. كان يحب عينيه الرماديتين وشاربه الأشقرين وركبتيه، ملجأه الأنيس الأمين يوم كان طفلا. وقد كانتا تبدوان له منيعتين كقلعة حصينة، محترمتين كمعيد، ومسليتين كاحصنة من خشب.

وكان الكسى ينكر في سره تجهم أبيه وملامحه القاسية ويحلم بمستقبل يكون فيه، على حصانه دائما، رشيقا كسيدة، ورائعا كملك، ويجد في بلداسار اسمي وأكمل مثال حي للرجل.

كان يعرف إن عمه جميل، وانه يشبهه، وكان يعلم انه ذكي كريم، وان سلطته تعادل سلطة أسقف أو قائد. والحق أن انتقادات أهله كانت قد صورت له الفيكونت كرجل ذي مساوئ ومباذل، حتى ليذكر ما شاهده من ثورة غضبه يوم هزأ به ابن عمه جان جالياس، ولهجة الاحتقار التي كان يحدث بها لو كريسيا عندما صارحته بأنها لا تحب موسيقاه.

ولكن مساوى، عمه كلما زالت الآن على التأكيد. فعندما علم الفيكونت بأنه قد يفارق الحياة خلال سنتين، لشد ما أضحي لديه هزئ ابن عمه وقيمة موسيقاه، وكل ما عدا ذلك، أشياء تافهة لا يؤبه لها. وكان الكسي يصوره لنفسه جميلا رائعا، من روعة ذات طبيعة خاصة ليس لها صلة بروائع

هذا العالم. وكان يمتزج بأساه وحزنه على عمه شيء من الخوف والقلق.

واعدت العربة فصعد إليها الكسي. ولكنه لم يلبث أن نزل منها وقصد إلى مربيه يستشيره في أمر. وعندما بدأ يتكلم تخرجت وجنتاه بلون الدم.

– سيد ليجران. هل يستحسن أن يشعر عمي باني اعرف انه سيموت.

– كلا يجب ألا يشعر.

– وإذا حدثني بذلك.

– لن يحدثك.

– لن يحدثني! قالها الكسي مستغربا إذ كانت الاحتمال الوحيد الذي لم يساور خاطره. فعندما كان يتخيل زيارته لعمه كان يفترض دائما انه سيحدثه عن الموت بلطف وهدوء الراهب الناسك.

– ولكن على افتراض انه حدثني.

– تقول له: انك واهم.

– وإذا بكيت ؟

– بكيت كثيرا هذا اليوم، فلن تبكي أمامه.

وصرخ الكسي يائسا: "لن ابكي! ولكن قد يعتقد عمي العزيز إني لا أحبه" وراح يجهش بالبكاء. وكانت أمه قد ملت انتظاره فجاءت تفتقده، وسارت بها العربية.

* * *

عندما أعطى الكسى معطفه الصغير للخادم المنتصب في البهو توقف قليلا مع أمه ليستمع إلى نغم قيثارة ينبعث من غرفة مجاورة. ودخلا غرفة مستديرة جدرانها من البلور، وتطل من جهة على البحر ومن الجهة المقابلة على غابة وسهول ومراع خضر. وكان في صدر الغرفة هرتان و أزهار وورود وآلات موسيقية. وظلا ينتظران برهة. واندفع الكسي إلى أمه. ظنته في البدء يريد معانقها، إلا أنه قال لها بصوت خافت وفمه ملصق إلى أذنها: كم يبلغ عمي من العمر ؟

سيبلغ السادسة والثلاثين في حزيران القادم .. وود الكسي لو يسألها: "أترينه سيبلغ السادسة والثلاثين ؟" ولكنه لم يجسر.

وفتح باب فاعترت الكسي رعشة، ودخل خادم يقول: "سيحضر سيدي الفيكونت لتوه". ثم عاد و ادخل طاووسين و معزاة لم يكن يفارقهما الكونت. وسمع وقع أقدام، وفتح الباب من جديد. وكان قلب الكسي يثب كلما سمع ضجة. وقال في سره هذه المرة: "لابد إن يكون خادما آخر"، ولكنه سمع في الوقت نفسه صوتا لطيفا يقول له: "صباح الخير يا صغيري الكسي، أتمنى لك عيدا سعيدا. وتقدم إليه يعانقه، فشعر الكمي بشيء من الخوف لم يغب عن الكونت الذي أراد أن يعطيه فرصة يهدئ بها من روعه فشغل بالحديث مع امرأة أخيه، وكانت أعز مخلوق لديه بعد وفاة أمه.

ومرت دقائق لم يعد يشعر الكسي بعدها بسوي حنان هائل نحو هذا الشاب الجميل، وقد علت وجه مسحة شحوب خفيف وراح مثل

دور الفرح والبهجة في هذه الدقائق الفاجعة. انه ليود أن يوتي على عنقه فلا تواتيه الجرأة، خشية أن تنهار أمامه مقاومة عمه المسكين فلا يستطيع السيطرة على أعصابه. وكانت نظرات الفيكونت الحلوة. الحزينة تبعث فيه رغبة ملحة للبكاء. كان يعلم إن نظرات عمه كانت حزينة دائما. حتى في اللحظات الفرحة السعيدة، كانت تبدو وكأنها تلتمس العزاء آلام خفية لا تظهر على سيماته علائم الشعور بها. وشعر في هذه اللحظة أن آلام عمه التي استطاع أن يبعدها عن حديثه بشجاعة و عزم، قد استقرت في عينيه الغائرتين و في خديه الهزيلين.

قال له عمه: "أعرف انك تحب أن يكون لك عربة بحصانين يا صغيري الكسي. سأقدم لك الحصان غدا، وأكمل الزوج في السنة القادمة. فتكون لديك عربة خلال سنتين، ولكنك قد تستطيع امتطاء الحصان هذه السنة. سنجرب هذا لدي رجوعي، إذ إني راحل غدا. ولكني لن أتغيب طويلا. سأعود قبل مضي شهر ونذهب معا لحضور المسرحيات التي وعدتك بها".

وكان الكسي يعلم أن عمه سيقضي بضعة أسابيع لدى احد أصدقائه. وكان يعرف أيضا أنهم ما يزالون يسمحون لعمه بالذهاب إلى المسرح. ولكن مدى تغلغل فكرة الموت في رأسه، وقد ضعضعته في أعماق أعماق ذاته قبل أن يقصد لزيارة عمه، أثارت في نفسه دهشة عميقة محزنة. وهتف لنفسه: "لن أذهب، فلشد ما سوف يؤلمني تهريج الممثلين وضحك النظارة".

وسألت أم الكسي عن اللحن الجميل الذي سمعاه لدى وصولهما.

– آه!.ترينه جميلا؟ هو اللحن الذي حدثتك عنه. قالها بلداسار وعلى وجهه مظاهر الفرح. وتساءل الكسي في سره: مثل الكوميديا؟ كيف يستطيع نجاح موسيقاه أن يدخل أن يدخل السرور إلي قلبه بعد؟

واتخذ وجه الفيكونت في هذه اللحظة عبارة ألم عميق فشحبت وجنتاه، وقطب شفتيه وحاجبيه، وامتلأت عيناه بالدموع.

وصرخ الكسي في سره: يا إلهي! أن هذا الدور ليتجاوز درجة احتماله. واه لعمي المسكين! ولكن. لم يخشى إلى هذا الحد أن بسبب لنا الأكدار. لم يرهق نفسه بمثل هذه الشدة

***

عندما عاد الكسي مع أمه تأثر قلبه الصغير لفكرة بدأت تراوده انه هو أيضا سيموت بوما. وإذا كان مجاله أفسح مدى من مجال عمه خان بستاني حديقة الفيكونت وابنة عمه الدوقة دالربوفر أن يعمرا بعد. طويلا. ولكن البستاني ما يزال مستمرا، مع ذلك، في سعيه اليومي لكسب اكبر قدر ممكن من المال، ولكي تظفر وروده بأعظم الإثمان. والدوقة، رغم سنيها السبعين، مازالت تهتم لأمر زينتها واصبغتها، وتدفع أموالا للصحف لتشيد بفتونها و مشيتها الرشيقة، وابتهة حفلاتها، وسعة معارفها..

وعجب الكسي لمهازل هذه النماذج الإنسانية الحية، ولم يستثن منها مثال حياته نفسها. واتخذ في قراره نفسه قرارا خطيرا: انه لن يجاري

هؤلاء الضالين السخفاء. و كهؤلاء الأنبياء الذين تعلم تمجيدهم وعقد قلبه على حبهم، سيعتزل العالم وينزوي في الصحراء مع بعض رفاقه الصغار. وكاشف أهله بهذا القرار، ولكن الحياة، وهي أقوى لحسن الحظ من مهازل هؤلاء الأطفال، لم تكن قد استنفدت معهم حلييها المنعش المحيي، فمدت به ثديها لتحوله عن عزمه فأخذ يعب بنهم وفرح، ويسمع ببراءة خياله الخصب، إلى نغم شكاتها، ويصلح على أبدع شكل ما نقوضه معا ولها المخربة.